

التشبيه في البيان النبوي - مقارنة بلاغية لأحاديث من صحيح البخاري -

الأستاذة: شهيرة برياري

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر - بسكرة

ملخص:

لا يخفى على أحد تميز الخطاب النبوي الشريف عن غيره من أصناف الخطاب في التأثير وتبليغ المعنى المراد وإصابة الهدف المنشود في التبليغ، وإن مما لا شك فيه أن الحديث النبوي لا يسمو إليه بيان ولا ينافس كلام بشر، وتبقى الصورة البيانية في الحديث الشريف مرتبطة بالمعنى وتقريبه، فضلا عن اهتمامها بإثارة الانفعال؛ فهي إذن جمالية هادفة وصورة تعبر عما يسمى في البلاغة (بالبيان) بما فيه من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز عموما.

وتأتي هذه الدراسة لتعرض لقواعد ونظرات من مسائل الدرس البلاغي محددة بباب التشبيه؛ هذا الباب الواسع الذي اهتم به العلماء والباحثون وتتبعوه في كلام العرب، في محاولة لتطبيقه على نص بليغ له قيمة علمية وعملية وقوة تأثيرية وإنجازية؛ إنه الخطاب النبوي ممثلا في بعض الأحاديث الواردة في صحيح البخاري*، وتأتي هذه القراءة التحليلية الجمالية في سياق الاستفادة من المبحث البلاغي "التشبيه" للتوصل إلى استنتاج وكشف ما بالخطاب النبوي من بلاغة وحسن بيان وتصوير، وانعكاس ذلك على الجانب الدلالي، والجمالي، والانفعالي والعبادي؛ والهدف في ذلك لزوم البنية البلاغية من خلال الصورة دون الاستغراق في الجانب الشرعي الذي له أهله.

1- بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم:

يعد الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني من مصادر التشريع بعد القرآن الكريم حيث كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل يمده بالسنة التي تفسر ذلك، فكل ما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير مصدره الوحي قال تعالى: ((وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ))¹، فإذا كان القرآن الكريم يمثل قمة البلاغة وذروة البيان، فإن مما لا شك فيه أن السنة النبوية تأتي في المحل الثاني؛ ذلك أن إشارات القرآن الكريم وإجماله احتاج إلى بيان وتفصيل فكانت السنة هي الشارح لما أوجز، والمفصل لما أجمل، والمبين لما تحت العموم من هيئات وصفات، وفروع وجزئيات²، فلا عجب أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أُوتِيْتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ)³؛ فهذه العبارة توحى بأن حكم الحديث النبوي هو حكم القرآن الكريم من جهة المصدر وهو الوحي، مع تميز للقرآن الكريم عن السنة النبوية التي تختلف عنه في لفظها الذي ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعناها من عند الله عز وجل؛ لذلك نسب النبي صلى الله عليه وسلم الفصاحة إليه⁴ فقال: (أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بَيِّنًا أَيْ مِنْ قُرَيْشٍ وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدِ)، ولم يكن هذا

افتخارا منه صلى الله عليه وسلم، وإنما كان تقريرا لحقيقة ثابتة، وكيف لا يكون أفصح العرب وهو خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى قلبه نزل القرآن العظيم، وقد رباه رب العالمين، ونشأ وترعرع بين عرب فصحاء معربين .

وتعد بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم من أبرز مظاهر عظمته، وأجلى دلائل نبوته، فهو عليه الصلاة والسلام صاحب اللسان المبين والمنطق المستقيم، والحكمة البالغة والكلمة الصادقة، والمعجزة الخالدة، "أما فصاحته فهي من سمت الذي لا يؤخذ فيه على حقه، ولا يتعلق بأسبابه متعلق، فإن العرب وإن هذبوا الكلام وحذقوه وبالغوا في إحكامه وتجويده، إلا أن ذلك كان منهم عن نظر متقدم ورواية مقصودة، وكان عن تكلف يستعان له بأسباب الإجادة التي تسمو إليها الفطرة اللغوية فيهم، فيشبه أن يكون القول مصنوعا مقدرا على أحمم مع ذلك لم يسلموا من عيوب الاستكراه والزلل والاضطراب...، بيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب على أنه لا يتكلف القول ولا يقصد إلى تزيينه ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده ثم لا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه"⁵.

وهذا الجاحظ -معلم البلاغة ورائدها- يصف فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم واصفا كلامه بقوله: "وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف...، استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن المهجين الشوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة، وشيّد بالتأييد، ويُسّر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يُقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل بيد الخُطْب الطّوال بالكلم القصار ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلافة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلجز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يُسهب ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم"⁶؛ هذا النص للجاحظ على طوله قصير، وفي إطنابه إيجاز، يصف بدقة لفظ وروعة بيان أدق لفظ إنساني وأروع بيان، وهو من أثر ما قيل في بلاغة كلام النبي صل الله عليه وسلم.

والحديث الشريف الذي بين أيدينا يدعونا أن نتأمل بلاغته وبيانه، للوصول إلى المعاني واستكناه الغايات على ضوء خصائص أساليب الحديث النبوي الشريف، الذي وصف صاحبه بأنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم؛ فأما قوله صلى الله عليه وسلم: ((بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ))⁷ فيحمل على ما آتاه الله من حسان المعاني وكبارها، تجتمع له تحت ألفاظه الموجزة، هذه الألفاظ النبوية التي "يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول حتى ليس فيها كلمة مفصولة، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره صلى الله عليه وسلم"⁸؛ فالإبلاغ أقوى الإبلاغ في

كلام النبي صلى الله عليه وسلم هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار بل اجتماع العلوم في بضع كلمات، وقد يبسطها شارحون في مجلدات؛ فليس معنى الكلمة الجامعة مقصوراً على اختصار الفكرة في اللفظ القليل، بل يتعداه إلى الإشارة بالكلمة إلى مجموعة كبرى من المبادئ التي تنتظم فناً أو علماً بأكمله⁹. وهذا أرقى مستويات البلاغة في الكلام تحت مفهوم البلاغة هي الإيجاز، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يتكلم على وجه الاختصار ويعبر بقلة الألفاظ عن المعاني الكثيرة التي لا تتغير معانيها وأغراضها ودلالاتها وغاياتها، ولا يتغير مقتضى حالها بتغير الزمان والمكان.

فإذا كانت البلاغة هي: "العلم الباحث عن القواعد التي تصير كلاماً دالاً على جميع المراد وواضح الدلالة عليه، ثم إن هنالك محسنات للكلام متى اشتمل عليها اكتسب قبولاً عند سامعه...، فالبلاغة هي العلم بالقواعد التي بها يعرف أداء جميع التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها وإبداع المحسنات بلا كلفة مع فصاحة الكلام¹⁰، والبيان هو: "علم به يعرف البليغ كيفية إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة على حسب مقتضى الحال.."¹¹، فالبلاغة النبوية هي ترقى الكلام النبوي إلى أعلى درجة من الفصاحة والبيان الإنساني؛ فهو دقيق اللفظ واضح المعاني، شريف القصد عميق الفكر، عظيم الفائدة والغاية، دون إغفال ما للبيان النبوي من جوانب جمالية للألفاظ والصور في علاقتها بالمعاني والأغراض، وكلام الرسول عليه الصلاة والسلام قد تميز بلطائف بيانية وأسرار بلاغية كثيرة جداً فإن من أمعن النظر فيها وقلب عقله فيها، فإنه سيعثر على فوائد جمه ولطائف مباركة وهذا ما يطلق عليه بشكل عام البلاغة النبوية، وأن النبي صلى الله عليه وسلم استمدد البلاغة من كتاب الله عز وجل.

وتجب العناية بقول رسول الله عليه الصلاة والسلام -بلاغياً- عناية تناسب مكانة هذا القول وإبداع هذا البيان؛ بأن ينال الحظ الذي يليق به من التحليل الواعي الذي يقف فيه طلاب العلم على ما فيه بيان من عناصر الأدب الرفيع الذي اجتمعت له فصاحة اللفظ وحلاوته ومناسبته للمعنى والغرض والسياق كما اجتمع له عمق المعنى ونصاعته وحدة الأفكار وترابطها بحيث يستطيع المتلقي استيعابها وجمعها والانتفاع بها.

ولبيان رسول الله من سهولة العرض وعذوبة الأسلوب ما يجعل المتلقي لا يكابد عناء في حسن المتابعة وانسياب المعاني في ذهنه، أضف إلى ذلك ما يجده في بيانه -صلى الله عليه وسلم- من أساليب متجددة تنتقل بين الخبر والإنشاء ولا تدع المتلقي بعيداً عنها، بل هي مستثيرة له بما عرفه أهل الأدب من وسائل التنبيه والإثارة وحسن التصوير؛ لتخرج المعاني عن خفائها الفكري المجرد إلى وضوح المشاهد المحسوس الذي لا تخطئه عين ولا تنبو عنه أذن ولا تحافيه بقية الحواس؛ فالحديث النبوي يمثل نصاً أدبياً في غاية الروعة من الجمال في الألفاظ وتنوع مستويات التعبير وتعدد الصور والتراكيب المتنوعة في تقديم الموضوع؛ وقد حوى هذا النص الشريف صنوف البلاغة ومستوياتها المتعددة، وسيكون تركيزنا على الجانب البياني منه محاولين النظر في بعض ملامح الصورة التشبيهية؛ لما لها من دور كبير في التبليغ لأنها تستهدف توضيح المعنى وتقريبه للسامعين في الوقت الذي تسترعي الأسماع بما فيها من جاذبية وتلوين.

وقد اطلعت في المتن الذي بين يدي الأحاديث التي اشتملت على الصور التشبيهية، متناولة بعضها بالقراءة والمقاربة البلاغية، منتهجة في ذلك الاختيار والإشارة والتمثيل لا الإمام والحصر، سالكة نهج الإيجاز واللمحات التي لا

ترقى إلى الإحاطة بهذا الموضوع الجليل الواسع والنص الشريف، محاولة في ذلك تقديم إشارات جمالية لهذا البيان الشريف، والهدف هو التأمل في دور الجانب البلاغي للبيان النبوي في تحقيق الغاية السامية -تبليغ الدين وهداية الإنسانية- وليس الهدف الإمام بكل الأحاديث محترمة في ذلك اتساع الموضوع ومقام بسطه.

ولا يخفى علينا أن الحديث عن الصور البلاغية وجماليتها لا يتجاوز الإشارة إلى علاقة الواقع بالخيال في تشكيلها؛ فوجود الخيال في الحديث النبوي أمر غير متوقع إلا عندما يكون مصدرا للتشبيه والتمثيل والتصوير...، فالبيان النبوي الذي يعتمد التصوير الذي يعتمد بدوره الخيال يأتي في أعلى درجات الصدق، وعلى ذروة سنم البلاغة لأنه متصل بهذه النفس الصافية التي تربعت على قمة السمو الروحي، وهذا يدفعنا للحديث عن الخيال كطريقة من طرق التعبير عن المعاني الصادقة، والتصورات المعقولة طالما نتحدث عن الخيال وصلته بفن الوصف في البيان النبوي...، إن إطلاق لفظ التخيل أو الخيال في صدد الحديث عن المعاني الصادقة، والتصورات المعقولة لا يحط من قيمتها أو يمس حرمة بنقيصة...، ولقد كان من أساليب القرآن في الدعوة أن ضرب الأمثال الرائعة، وصاغ التشبيه الرائعة، والاستعارات الفائقة، والكنائيات اللطيفة، ويضاف إلى ذلك ما كان ينطق به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأقوال الطافحة بضرب الأمثال والاستعارات والكنائيات التي لم تخطر على قلب عربي قبله فكان مطلع الإسلام مما زاد البلغاء خبرة في تصريف المعاني وترقى بهم في صناعة التخيل والوصف الدقيق النابع من البصيرة النافذة، وحسن الإدراك، والتدفق العاطفي أبلغ من التشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو الوسائل المألوفة في التصوير، إنه ينقل لك أمام عينيك المشهد حتى تكاد تحس به بجواسك وتلمسه بيديك¹²

وفيما يأتي بعض الإشارات التطبيقية حول بلاغة الصورة التشبيهية في الحديث النبوي الشريف وما حملته من أسرار جمالية ولطائف فنية.

2- الصورة التشبيهية في البيان النبوي:

التشبيه علاقة مقارنة تجمع بين طرفين، لاتحادهما واشتراكهما في صفة أو حالة أو مجموعة من الصفات والأحوال، هذه العلاقة قد تستند إلى مشابهة حسية، أو مشابهة في الحكم أو المقتضى الذهني الذي يربط بين الطرفين المقارنين، دون أن يكون من الضروري أن يشترك الطرفان في الهيئة المادية، أو في كثير من الصفات المحسوسة¹³؛ "حيث يكفي: أن تثبت لهذا المعنى من معاني ذاك أو حكما من أحكامه، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد، وللحجة حكم النور في أنك تفصل بها بين الحق والباطل"¹⁴، وسواء أكانت المشابهة بين الطرفين تقوم على أساس من الحس أو من العقل، فإن العلاقة التي تربط بينهما هي علاقة مقارنة وليست علاقة اتحاد أو تفاعل¹⁵.

وقد نظر البلاغيون في تعريف التشبيه إلى المعنى اللغوي لكلمة 'شبه' وهو 'مثل'، تقول: فلان شبه فلان أو مثله، وشبهته به أي مثلته به، والمعنى الاصطلاحي هو إلحاق أمر بأمر آخر في صفة أو أكثر بأداة من أدوات التشبيه ملفوظة أو ملحوظة¹⁶، هذه الأدوات تفصل بين طرفي التشبيه وتحفظ لهما صفاتهما الذاتية.

التشبيه -إذن- يفيد الغيرية ولا يفيد العينية، ويوقع الائتلاف بين المختلفات ولا يوقع الاتحاد¹⁷، "فلو أشبه الشيء الشيء من جميع جهاته لكان هو هو"¹⁸، فهو قائم على التمايز في صفات والتشابه في أخرى، بأن ينوب أحد الموصوفين مناب الآخر في بعض الصفات المشتركة ضمن علاقة مقارنة بينهما في حضور هذه الصفات من عدمه.

يقول الرماني: " والأظهر الذي يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه، منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، ومنها إخراج ما لا تجر به عادة إلى ما جرت به عادة، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة"¹⁹، وهذا ما يوافق فيه أبو هلال العسكري (ت395هـ) في قوله: "التشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان"²⁰.

ولما كانت الغاية من البيان النبوي هي الكشف عن الحقائق التي أرسل بها عليه الصلاة والسلام (التبليغ) وتوضيحها، فقد كان مما توصل به إلى هذه الغاية أسلوب التشبيه الذي شاع وكثر في كلامه عليه الصلاة والسلام عند عرضه للمعاني المختلفة، وذلك لما للتشبيه من أثر في النفس، ودور في إيضاح المعاني وبيان الفكر، وقد تنوعت التشبيهات في البيان النبوي وجاءت الأحاديث الشريفة حافلة بالصور التشبيهية .

أ- من ذلك ما رواه 'عبد الله بن عمر' رضي الله عنهما قوله: (أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِخْطَبًا، فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَائِلٌ سَبِيلًا)²¹؛ حيث شبه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه ولا مسكن يسكنه، ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلاد شاسع وبينهما أودية مردية ومفاوز مهلكة وقطاع طريق، فإن من شأنه أن لا يقيم لحظة ولا يسكن لحظة²²، ووجه الشبه هنا هو الغربة والممر واللااستقرار الذي يميز الدار الدنيوية، فالنبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يبين قيمتها عند العبد وحققها الذي لا يعدو أن يكون كحقوق بلد عند غريب عنها أو عابر سبيل لا حظ لهما فيها، وهي صورة تشبيهية تترك الخيال يصور أوصاف الغريب وعابر السبيل ما يجعل الآمال تنحصر فقط في التفكير والعمل للتزود الغريب في غرته وعابر السبيل في رحلته، وهي صورة لا تخرج عن البيئة أيا كان زمانها ومفهوم الغريب وعابر السبيل فيها.

وهو تشبيه مرسل جاء بأداة التشبيه 'كأن' لأن المقام اقتضى ذلك فهي تدل على قوة المشاهدة بين الطرفين فهو تشبيه حسي حقق غرض البيان والإيضاح وغاية التأثير في المتلقي 'ابن عمر' رضي الله عنهما ابتداء وجميع المسلمين وقد جاء المشبه به أمرا محسوسا لتقريب المعنى للأفهام.

ونقل لنا الحديث في مشهد عظيم بين النبي صلى الله عليه وسلم والصحابي الجليل الذي نقل الصورة في قوله: (أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِخْطَبًا)؛ ما يوحي بلفت انتباه المستمع وتركيزه لأهمية وشرف الغاية من الحديث الذي شكل بلفظه المختصر وصورته الراقية سمو المعنى وعمق الفكر فتحقق غرض تأكيد المعنى وتعميق الدلالة، ناهيك

عن قيمة العاطفة الإنسانية الراقية للنبي عليه الصلاة والسلام، كل ذلك منح الصورة التشبيهية قيمة جمالية ساهم في بيانها اجتماع القيم البلاغية والإنسانية والعقدية فحققت تأثيرا إيجابيا عميقا في نفس المتلقي ما يزيد إيمانا ويقينا.

ب- ومن الصور التشبيهية القائمة على التخيل ما روي عن أبي موسى الأشعري قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرَجَةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ؛ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ)²³؛ في هذا التصوير النبوي البليغ يؤصل النبي صلى الله عليه وسلم لقيمة وأهمية كتاب الله الكريم وغرضه بيان هذه القيمة والترغيب في رعايتها والاعتناء بها من الفرد المسلم في حياته، وكان تركيزه صلى الله عليه وسلم على مبدأ قراءة القرآن ودورها في حياة المؤمن الذي شكل بقراءته من عدمها طرف 'المشبه' في الصورة التي بين أيدينا التي جاءت مركبة من أربع صور تشبيهية جزئية قائمة على التضاد الذي جاء بأسلوب المقابلة بين النفي والإثبات (يقراً/لا يقراً) أو بشكل صريح (مؤمن/منافق)، بتربط وتداخل عجيب في تناسقه وانسجامه وتناسبه في لفظه ومعناه بإيجاز بليغ أضفى على الصور جمالية وروعة فنية للتصوير النبوي منفتح بإيجازه على المعاني والفكر السامية التي تخاطب الروح

والصورة الأولى تقوم على تشبيه المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأترجة التي جمعت بين الريح الطيبة والطعم الطيب؛ إيحاء بما يعترى المؤمن القارئ من بركة القرآن وفضله شكلا ومضمونا، عقلا وروحا، وهو تشبيه مرسل اعتمد الأداة 'كمثل' للجمع بين الطرفين، وهو تشبيه تخيلي ينقل المتلقي بخياله للتفكر في الصورة بتأثير عجيب، فالرائحة الطيبة والطعم الطيب يتحقق في وصف الأترجة 'المشبه به'، ولا يتحقق في وصف القرآن إلا تخيلا في ارتباطه بوصف الأترجة بوجه شبه ينقل طيب الرائحة والطعم من الأترجة إلى طيب الظاهر والباطن للمؤمن الذي يقرأ القرآن والصورة الثانية تقوم على تشبيه المؤمن الذي لا يقرأ القرآن في مقابلته للمؤمن الذي يقرأ القرآن مع نفي القراءة، بالتمرة ذات الطعم الحلو واللارائحة في مقابلتها بالأترجة مع نفي الرائحة، في تشبيه تخيلي قام على وجه شبه يفسر الإيمان بالباطن أو المضمون 'الطعم'، وقراءة القرآن بالظاهر أو الشكل 'الرائحة'.

أما الصورة الثالثة فهي تقوم على تشبيه المنافق الذي يقرأ القرآن بالريحانة التي انفردت بصفة الريح الطيبة دون الطعم الذي وصف بالمرارة؛ إيحاء بما تضمنه قراءة القرآن وإن كان صاحبها منافقا.

والصورة الرابعة تقوم على تشبيه المنافق الذي لا يقرأ القرآن في مقابلته بالمنافق الذي يقرأ القرآن مع نفي القراءة، بالحنظلة ذات الطعم المر واللارائحة في مقابلتها بالتمرة.

كل هذه التشبيهات مجتمعة شكلت لنا صورة بيانية مركبة، جمع فيها النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب بارع ووصف بديع منسجم لا يعتره اضطراب ولا خلل، هذا التمثيل البياني الرائع الذي جلى المعاني الخاصة بعلاقة المسلم بالقرآن الكريم وقراءته وما تحمله هذه العلاقة من فضل للقرآن الكريم من عدمه بحسب هذه العلاقة في ظاهرها وباطنها،

وظاهرها دون باطنها، وباطنها دون ظاهرها، ودون الظاهر والباطن؛ بإيجاز بليغ مذهل في جمعه ومنعه عجيب في إحاطته مدهش في كليته، وكل ذلك في سهولة مأخذ وبساطة لفظ وعمق فكرة وسمو معنى وجمال وصف وبراعة تصوير، دون تعقيد أو تكلف أو تنافر، حيث "أضاف إلى الحقيقة الفكرية صورة جعلتها تختال أمام العيون في ثوب بهيج، ولا شك أن سامعه سيقارن بين الشبه والشبيه فيزداد تأثراً وانفعالا بما سمع، ثم يندفع إلى التفكير فيما يسمع مدققا محملا إذ مس أوتار قلبه مسا حيا، وإذ بلغ النبي صلى الله عليه وسلم بتصويره مبلغ التأثير القوي فقد أدى رسالته الإبداعية والبلاغية على أكمل ما يراد"²⁴

ج- ومن صور التشبيه

ما ورد عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى)²⁵؛ هذا الحديث العظيم الذي يمثل بشرى عاجلة لكافل اليتيم وأية بشر قدمها النبي صل الله عليه وسلم في صورة تشبيهية بدیعة رائعة، كان صلى الله عليه وسلم مع كافل اليتيم أحد طرفيها (المشبه)، في تشبيه حسي بإصبعي اليد السبابة والوسطى (المشبه به) الذي يؤكد حالة الكافل وأجره فوجه الشبه هو التلازم، واللطائف التي فرقت على الطرفين جدرة بالإعجاب فالمعية أو المصاحبة في جانب المشبه إرصاد إلى جنس الجزء الذي يدل عليه كمال عبارة وجذب لانتباه المخاطب إلى أن يسعد بهذه النعمة المثل ثم التعجيل بأصل المجازة وهو الوجود في الجنة الغاية من هذه الصورة الراقية أما وجه الشبه فقد حمل صورتين لفظية تفيد التشبيه 'هكذا' وإشارية رمزية بإصبعي اليد فتعاظدت الصورتان لتؤكد إحدهما الأخرى في تناغم بدیع بين طرفي الصورة لفظا وإشارة، ساهمت في جلب انتباه المتلقي واستفزاز خياله التصويري في الربط بينهما للوصول إلى الغاية الشريفة في مقارنة تسوية طبيعية أضفت ملمحا جماليا؛ لحسن اختيار الصورة وبراعة التنسيق بين أجزاءها لتسمو الروح وتزكو، كما حملت معية النبي صلى الله عليه وسلم شرفا وتأكيدا لحسن الجزء وكفى بها من معية كريمة زادته المعية التجسدية بين السبابة والوسط والعلاقة التجارية الدائمة بينهما خير مؤكد، والبدیع في هذه الصورة التشبيهية التمثيلية هو الاختصار والإيجاز في اللفظ الذي يشمل على معان كثيرة كان لها رونق وتمكين في النفس وآثار إيمانية جليلة كما كان لها عظيم التأثير على الفكر لقيمتها الفنية العالية وقوة بلاغته ودقة الاستعمال الذي يقرر لهذا الدين القويم في دقائقه وجزئياته عن طريق تصوير المعاني.

د- ومن صور التشبيه ما روي عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال وفي حديث بكر: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟" قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا²⁶؛ يريد عليه الصلاة والسلام أن يقرر لأتمته فضيلة الصلاة ويؤكد أجرها ليصبروا عليها فمثل المؤمن الذي يعد نفسه للصلاة فيصلبها حتى يتم فرض اليوم بحال المؤمن الذي يمر ببابه نهر فهو يغتسل فيه خمس مرات كل يوم، والمماثلة بين الحالين مقصود منها إثبات الغاية، وقد جاءت للتقرير مصرحا بها على وجه التقابل، فتكرار الصلوات يمحو الخطايا كما أن تكرار الاغتسال لا يبقى من الدرن شيئا²⁷

وصورة المثل التي جاءت بأسلوب الاستفهام لجلب الانتباه في سياق تقريره، وصورة النهر الذي يجري بالبواب وبهذا القرب يوحي بالحياة ويشعر بالجمال وهي تخاطب الخيال لاستحضار هذا المشهد الطبيعي الحي وتكراره على مدار اليوم خمس مرات يحمل مع حياته الطبيعية حياة للقلوب وهو غرض إيماني سعى من خلاله النبي صلى الله عليه وسلم إلى ترسيخ قواعد عبادية ترتبط بالصلاة عماد هذا الدين فجاءت الصورة تحمل حياة بديعة كمثل ما تمثله الصلاة في حياة المؤمن، والصورة مقابلة بين هئيتين بلغة بلغة جزلة تستثير المتلقي بألفاظها الدقيقة العميقة ومعانيها العظيمة السامية وهذا الحوار الراقي بين النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام الذي يقرر سعة صدره صلى الله عليه وسلم حيث فتح باب الحوار مشاركة لهم ما يقوي انتباههم وتركيزهم فيكون الكلام أدمى إلى الرسوخ والفهم بل والحفظ، ومن جانب آخر يزيد الصورة إيضاحاً وبيانا وتأكيداً للمعنى الذي جاء بغرض الترغيب لتحقيق هذا النعيم المتجدد الدائم ولعل في استخدام زمن المضارعة مثل قوله 'يغتسل' والتكرار والكثرة 'خمس مرات/كل يوم' ما يوحي بذلك، كما تحقق ذلك من خلال التقريب والربط بين الطرفين بالأداة 'مثل' التي أفادت المقابلة والمعادلة وتوضيح طرف بطرف، وهو تشبيه مرسل قام حسي قائم على الهيئة، كما لا يخفى ما لهذا الأسلوب من بيان لحسن تعليم النبي صلى الله عليه وسلم حيث يلقي الخبر بأسلوب الاستفهام لاسترعاء الانتباه يتلخص ذلك في قوله 'أرأيتم' وهذا لأهمية الموضوع المخبر عنه وجلاله (الصلاة) كل ذلك ساهم في إضفاء صبغة جمالية تشكلت مع هذا التقابل المتناسق البديع في مقارنة تشبيهية بين الهئيتين، وسمو الدلالة وعمقها الإيماني في نفس المتلقي الذي يرحل بخياله ليعيش حياة هذه الصورة الوصفية الرائعة البديعة ما يزيده تعلقاً قلبياً بالعبادة وخشوعاً وهيبة ومحبة وصدقاً ويقيناً.

هذه بعض الصور التشبيهية التي وردت في البيان النبوي الشريف من النصوص التي بين يدي، وهي قطرة من بحر حاولت فيها -على قلتها وإيجاز ما ورد حولها- قدر الإمكان أن تظهر ملمحاً بسيطاً من بلاغة التشبيه في هذا الخطاب الجليل البديع الراقي.

وقد ساهمت هذه التشبيهات ببديع تركيبها وفائق جمالها في إضفاء ملمح بياني راق وقيم تعبيرية عميقة وسامية أثارت المتلقي للسعي وراء المعاني الجليلة في سمتها الإيماني والعبادي لما لها قيمة إبلاغية وبعد تأثري، ناهيك عن قيمتها الجمالية القائمة على التصريح والتلميح، لتحث انفعالا في نفس المتلقي لأنها تفوق اللغة العادية فيما تحقق من أغراض، نتيجة توظيفها الجمالي القادر على تصوير الأحاسيس الغائرة والأفكار العميقة والمعاني الجليلة والمبادئ السامية في علاقة اللغة بالواقع؛ فقد وصل لنا الدين بسهولة ويسر لحسن بلاغة النبي عليه الصلاة والسلام التي وصل بها إلى كل ما هو نافع مفيد، وذلك بلفت الانتباه وتحويله إلى الأغراض المعنوية العميقة للصورة التشبيهية، ودلالاتها التعبيرية وعلاقتها بالحقائق الطبيعية والعلمية والعقدية والعبادية.

الهوامش:

- * - لما كانت دراستنا متعلقة ببلاغة التشبيه في البيان النبوي الكريم، وبيان قيمته وخصائصه التعبيرية كان لا بد من الطمأنينة إلى النصوص محل الدراسة فكان الاهتمام بأحاديث من صحيح البخاري، وقد كان الاعتماد على كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني.
- 1- النجم، 3-4
 - 2- ينظر: كمال عز الدين (عز الدين السيد)، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، دار إقرأ، بيروت، لبنان، ط1، 1984م، ص12.
 - 3- أخرجه أبو داود في سننه، باب لزوم السنة، رقم الحديث 4591.
 - 4- كمال عز الدين: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، ص23.
 - 5- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط8، 2005م، ص194.
 - 6- المحاضر: البيان والتبيين، البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ص31.
 - 7- أحمد بن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2004م، ج6، ص145
 - 8- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص193.
 - 9- ينظر: عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دت، ص79.
 - 10- محمد الطاهر بن عاشور: موجز البلاغة، المطبعة التونسية، تونس، ط1، ص6.
 - 11- المرجع نفسه، ص31.
 - 12- محمد أبو العلا الحمزاوي: بلاغة الوصف في الحديث النبوي من خلال الصحيحين دراسة بلاغية تحليلية، مجلة جامعة جازان- فرع العلوم الإنسانية، مجلد1، عدد1، ديسمبر 2011م، ص10.
 - 13- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1992م، ص172.
 - 14- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، اعتنى به: مصطفى الشيخ مصطفى وميسر عقاد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2007م، ص78
 - 15- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص172.
 - 16- عبده عبد العزيز قلقيلة: البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط3، 1992م، ص37، وينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج13، ص503.
 - 17- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص174.
 - 18- أبو هلال العسكري: الصناعتين، 'الكتابة والشعر'، تحقيق: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، لبنان، 1986م، ص262.
 - 19- محمد محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي "دراسة تحليلية لتراث أهل العلم"، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط2، 1997م، ص98.
 - 20- أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص265.
 - 21- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، رقم الحديث 6416، ج11، ص263.
 - 22- المصدر نفسه، ص263.
 - 23- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، رقم الحديث 5427، ج9، ص634\ (الأُثْرَجَةُ) ثم شبه التفاحة، وهي بضمّ الأهمزة والراء بينهما مثناة ساكنة وآخره جيم ثقيلة، وقد تحفّف. ويُزاد قبلها ثون ساكنة، ويُقال بخذف الألف مع الوجهين فيلک أربع لغات وتبلغ مع التخفيف إلى ثمانية. وهي من أحسن الثمار الشجرية وأنفسها عند العرب.(الريحانة) كل بقلة طيبة الريح، وهو ما يستراح إليه، وقيل: هي كل نبت طيب الريح من أنواع المشموم.(الحنظلة) نبات ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة، ويمتد على الأرض كالبطيخ وثمره يشبه ثمر البطيخ، لكنه أصغر منه جداً، ويضرب المثل بمرارته.
 - 24- ينظر: محمد رجب البيومي، البيان النبوي، ص233.
 - 25- المصدر نفسه، رقم الحديث 6005، ج10، ص491.
 - 26- المصدر نفسه، رقم الحديث 528، ج2، ص14.
 - 27- كمال عز الدين: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، ص56